خاتمة

٥٩ — تمهيد :

لعله يكون قد اتضح لنا فى النهاية أن « لحتمية الحل الإسلامى » جانبان أساسيان :

الأول : أن تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملا ، يرتهن أول مايرتهن على نظام الحكم القائم ، وما لم يقم نظام الحكم على المبادىء التى حددتها الشريعة ، وهى تنحصر فى هيمنة الدستور الإسلامى « القرآن والسنة » على سلطات الحكم فى الدولة ، وأن تكون الأمة الإسلامية هى مصدر السلطات فإن تطبيق الشريعة فى حياة المسلمين سيبقى حلماً ، لن يتعدى كلام الخطباء ، أو كتب المؤلفين .

الثانى : أن عدم عودة الدين الإسلامى إلى مركز التوجيه فى حياة المسلمين، من الناحية السياسية ، معناه استمرار الصراع الداخلى قائماً بين أبناء الأمة الواحدة ، وقد يأخذ هذا الصراع صورة العنف ، أو يأخذ صورة الرفض ، أو يأخذ صورة المقاطعة السلبية من بعض طوائف الأمة للنظام القائم ، وهذا كله معناه إضعاف للأمة الإسلامية ، وتمكين لأعدائها من النيل منها ، وإذا تمكن الأعداء منا ، فليس هناك ضمانة واحدة تحمينا منهم ، أو تجعلهم يقفون فى عدائهم لنا عند حد معين ، ولعلنا لم ننس بعد أن أول كلمة قالها قائد الجيوش البريطانية عندما دخل مدينة القدس بعد الحرب العالمية الأولى قولته « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، ولاشماتة القائد الفرنسى الذى دخل دمشق عندما صاح « هانحن اليوم عدنا ياصلاح الدين » .

والأمر عندئذ لابد أن ينتهى إلى أحد أمرين لاثالث لهما حدثنا عنهما المولى

سبحانه وتعالى فى قوله « إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً » .

وليست عودة الدين الإسلامى إلى مركز التوجيه فى حياة المسلمين بالأمر الهين أو السهل فإن هناك عقبات مازالت فى الطريق لابد من تخطيها ، وإن كانت أيضاً هناك عقبات قد تخطتها كثير من شعوب الأمة الإسلامية ، وهى بلاشك تجعلها أقرب إلى تحقيق أهدافها .

٦٠ — عقبات مازالت فى الطريق :

فى ظنى أن أكبر العقبات التى تقف فى طريق المسلمين لاستعادة هيمنة التشريع الإســـلامى على حياتهم هى « التبعية الثقافية للغرب أو للشرق » هذه التبعية التى وقع المسلمون فيها نتيجة لتخلفهم الحضارى ، ونتيجة للاستعمار الذى تحكم فى أقدارهم لسنين طويلة ، هذه التبعية الثقافية الأجنبية نتج عنها أن تخلى المسلمون عن ذاتهم وعن شرائعهم ، وليس ذلك فقط بل وجعلهم يتبنون الأفكار الغربية والتجارب الغربية ، ويفسرون التاريخ الإسلامى من خلال نظرات المستشرقين ، بل وفى كثير من الأقضية والأبحاث التى يقومون بها تتجه أنظارهم إلى مشكلات المجتمعات الأجنبية أكثر مما تتجه إلى مشكلات مجتمعاتهم ، وهذا ينتج عنه انفصال بين العلم وبين واقع المجتمعات الإسلامية ، وبالتالى ينتج عنه عزلة العلماء عن مجتمعاتهم ، وعدم قدرتهم على التأثير فيها[1] .

هذه العزلة للعلماء ينتج عنها عقبة أخرى من العقبات التى تقف فى وجه إعادة الدين الإسلامى إلى مركز التوجيه فى حياة المسلمين ، وهى سيطرة حكم « القوة » على حياة المسلمين ، إذ لو أن بعلماء المسلمين القدرة على التأثير على مجتمعاتهم لاستطاعوا أن يقودوا أممهم إلى بناء نظام حكم سليم ، تنتهى فيه

---

(١) راجع فصل « التخلى عن الذات » من مؤلفنا « النظام العالمى الاسلامى » ص ٥٨٦ : ٦١٠

نظم الحكم الفردية والمطلقة فى حياتهم ، ولايصبح حكام المسلمين آلهة أو أنصاف آلهة ، ولو تمكنت الشعوب الإسلامية من السيطرة على أقدارها بإقامة الأحزاب السياسية ذات القواعد الشعبية القادرة على التكتل والتجمع وفرض إرادة الشعب ، لكانت هذه أكبر خطوة على طريق إعادة تطبيق التشريع الإسلامى فى حياة المسلمين .

٦١ — وعقبات زالت :

أما العقبات التى زالت ، فهى انحسار الاستعمار الأجنبى عن أرض المسلمين ، وقد تكون التبعية الثقافية هى أحد مخلفات هذا الاستعمار ، ولكن سيطرة القوة الأجنبية على مقدرات الأمم الإسلامية من الداخل كان يحول بين هذه المجتمعات وبين دينها ، وكان هذا الاستعمار وما تزال أمه تنظر إلى الإسلام لاعلى أنه مُنكر لكثير من معتقداتهم الدينية فحسب ، بل على أنه خطر سياسى أيضاً ، ومازال الذكريات التاريخية التى التحم فيها العالم الإسلامى مع أوربا تلقى بظلالها على التفكير الأوربى والتصرف الأوربى .

ولهذا فإنهم يخشون أن يؤدى بعث الروح الإسلامى من جديد إلى إيقاظ القوة الغافية فى العالم الإسلامى بحيث تدفعه إلى القيام بمغامرات عدوانية على الغرب.

ولهذا فإن زوال هذا الاستعمار ، وعودة الشعوب الإسلامية للسيطرة على مقدراتها الداخلية ، يعتبر بلاشك خطوة إلى الأمام فيما نحن بصدده ، وذلك إذا ما تمكنت العناصر الصالحة من الأمة من قيادتها فى طريق استعادة الذات ، وعودة الأمة إلى نفسها ، ومحو هذا الانفصام القائم فى حياتها بين عقيدتها وبين التشريعات التى تتحكم فى حياتها .

وهناك عقبة أخرى زالت عن معظم العالم الإسلامى ، وهى توارث الحكم فى بيوتات معينة أو أسر معينة ، ولاشك أن توارث الحكم يتنافى مع مبدأ « الشورى » ومبدأ « البيعة » فى الإسلام ، ويجعل كثيراً من الحكام يخرجون على كثير من التشريعات الإسلامية ، بل ويلوون عنان هذه التشريعات كى تخدم أغراضهم السياسية .

ولذلك فإنه لاعذر لنا اليوم فى إعادة بعث التشريع الإسلامى فى حياتنا من جديد ، فلا استعمار من الخارج يفرض إرادته على مقدراتنا ، ولا بيت يحرص على أن يبقى الملك فيه جيلا بعد جيل ، والأشخاص الحاليون مهما كانوا ، فإنهم إلى زوال ، ولذلك فإن العقبات الحالية لابد من التغلب عليها ، لأن بقاء الأوضاع كما هى عليه لامصلحة لأحد فيه حكاماً أو محكومين .

٦٢ — الدور الذى ينتظر البطل :

إن أعظم الأدوار التى يمكن أن يقوم بها قائد أو زعيم فى داخل أمته الإسلامية ، هو الذى يقودها فيه ليخرجها من حكم « القوة » إلى حكم « القانون » .

وذلك يمكن أن يكون إذاً قادها لتحقيق مايلى :

* أن يصبح الشعب هو المهيمن على مقدراته أساساً ، وذلك بأن يفسح المجال له ليكون مؤسساته السياسية الحقيقية ، وهى الأحزاب السياسية التى تكون تعبيراً حقيقياً عن اتجاهات شعبية أصيلة ، لها قادتها وزعماؤها ، ولها برامجها وأهدافها ، ولها صحافتها الحرة المعبرة عنها .

* أن يتم عزل الجيش عزلا تماماً عن السياسة ، بحيث يتفرغ لهدف إنشائه فى أية أمة وهو حماية الوطن من أعدائه فى الخارج ، وحياد الجيش وسط التيارات السياسية المختلفة لأبناء الوطن هو شرط أساسى للتخلص من حكم « القوة » وسيطرة حكم « القانون » فى المجتمع .

* أن يؤقت تولى كل المناصب السياسية الرئيسية فى الدولة ، بحيث لايتخلى عن هذا الشرط مهما كان شخص القائد أو الزعيم .

ذلك أن تأقيت السلطة فى حياة الإنسان ، يجعل لشخص من يتولاها مصلحة شخصية فى المحافظة على تطبيق القانون وعدالة تطبيقه أيضاً ، لأنه فى يوم من الأيام سيتحول إلى شخص عادى ، وسينزل من على خشبة المسرح السياسى ليتحول إلى واحد فى صفوف النظارة ، وحينئذ سيكون فى بقاء حكم « القانون » ضمانة له ، يحافظ عليه وهو فى داخل السلطة ، ولا يتعدى حدوده .

* أن يتم تولى كل المناصب الرئيسية عن طريق الانتخاب المباشر من الشعب ، بما فى ذلك منصبا رئيس الدولة ونائب الرئيس ، على أن يكون من حق الأحزاب التقدم إلى الشعب بمرشحيها مباشرة لشغل هذه المناصب ، مع عمل الدعاية الانتخابية اللازمة لهؤلاء المرشحين .

* أن يتم التخلص من كل القيود — غير الطبيعية — على حرية الانتخاب بحيث يترك للأغلبية أن تختار من ترى أنهم جديرين بتمثيلها أيا كانت انتماآتهم المهنية ، إذ أن التمثيل السياسى شىء يختلف فى طبيعته عن التمثيل المهنى ، والأغلبية هى أدرى بمن يصلح لتمثيلها .

* أن يتم حياد القضاء واستقلاله ووحدته .

يوما لن يذكر التاريخ لهذا الحاكم أنه بنى مصنعاً أو حرر بضع كيلومترات من قبضة العدو ، ولكنه سيذكر له أنه حرر إرادة أمته ووضعها على أول طريق حقيق للتقدم والنماء والأمن والاستقرار ، وعليها هى بعد ذلك أن تثبت حقيقة معدنها ، وما إذا كانت أهلا للتقدم ومناطحة الأمم الأخرى ، وحمل رسالة الإسلام والانتساب إليه أم لا . ؟!

وقد لا يبقى هذا الحاكم فى كرسى السلطة سنيناً طويلة ، ولكنه سيعيش فى قلوب أبناء أمته جيلا بعد جيل ، ترتفع أيديهم له بالدعاء بعد مماته ، وتتذكره أجيال أمته المتتالية فتفيض العيون بالدموع شوقاً لذكراه ، ومحاولة للاقتداء به ، وما أقل هؤلاء الحكام فى تاريخنا ، وما أكثر الحكام الذين صفقت لهم شعوبهم فى حياتهم ، وتبعتهم باللعنات عندما تخلت عنهم السلطة أو لفظتهم الحياة .